شرح الأربعين النووية

الحديث الحادي والأربعون

لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى

اللقاء الرابع والأربعون

🕮 الحديث الحادي والأربعون:

عَنْ أَبِيْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ بنِ عمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: "لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَواهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ" حَدِيْثٌ حَسَنٌ صَحِيْحٌ رَوَيْنَاهُ فِي كِتَابِ الحُجَّةِ بِإِسْنَادٍ صَحِيْحٍ.

🕮ترجمة الراوي:

🗐 عَبْدِ اللهِ بِنِ عمْرِو بْنِ العَاصِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-..... عبدالله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن كعب بن لؤي بن غالب، الإمام الحبر العابد، صاحب رسول الله -ﷺ- وابن صاحبه، أبو محمد، وأمه هي رائطة بنت الحجاج بن منبه السهمية، وليس أبوه أكبر منه إلا بإحدى عشرة سنة أو نحوها، وقد أسلم قبل أبيه فيما بلغنا، ويقال: كان اسمه العاص، فلما أسلم غيَّرَه رسول الله -ﷺ-إلى عبدالله؛ قاله الذهبي، وكان من فضلاء الصحابة وعبَّادهم وزهادهم، يصوم النهار ويقوم الليل، وكان أكثر الناس أخذًا للحديث والعلم عن رسول الله -ﷺ-، يبلغ ما أسند سبعمائة حديث، اتفقا له على سبعة أحاديث، وانفرد البخاري بثمانية، ومسلم بعشرين، وقد عمي آخر عمره، وكان مع أبيه إلى أن توفي أبوه بمصر، ثم انتقل إلى الشام، ثم إلى مكة، ومات بها سنة خمس وستين، عن اثنتين وسبعين سنة.

منزلة الحديث:

◘◘ هذا الحديث مع وجازته يصلح أن يقال فيه: إنه كل الإسلام؛ لإفادته أن من كان هواه تبعًا لجميع ما جاء به النبي -ﷺ- فهو المؤمن الكامل، ومن أعرض عن جميع ما جاء به ومنه الإيمان فهو كافر [الجواهر اللؤلؤية شرح الأربعين النووية].

◘ قال الطوفي رحمه الله: وهذا الحديث على وجازته واختصاره من الجوامع لهذه الأربعين وغيرها من السنة [التعيين في شرح الأربعين].

◘ قال الشبشيري رحمه الله: هو حديث عظيم نافع وجيز، جامع لأفراد الشريعة [الجواهر البهية].

شرح الحديث:

((لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ))؛ أي: لا يؤمن الإيمان الكامل، وليس المراد به نفي الإيمان بالكلية.

((حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ))؛ أي: حبُّه وميله ((تَبَعَاً))؛ أي: تابعًا ((لِمَا جِئْتُ بِهِ)) من الشريعة المطهرة، فلا يلتفت إلى غيرها.

إن كل إنسان لا يؤمن الإيمان الكامل حتى يحب ما جاء به الرسول -ﷺ-، ويعمل به، ويكره ما نهى عنه ويجتنبه.

وأنه لا يعمل أي عمل من الأعمال حتى يعرضه على كتاب الله وسنة رسوله -ﷺ- فإن وافق الكتاب والسنة فعله، وإن كان فيهما ما ينهى عنه اجتنبه وأعرض عنه، وهذا هو حقيقة من كان هواه تبعا لما جاء به محمد -ﷺ-: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) [الحشر:7].

من أعظم المبادئ التي حرص الإسلام على ترسيخها في النفوس المؤمنة، الانقياد لأحكام الشرع وتعاليمه، بحيث تصبح أقوال الإنسان وأفعاله صادرة عن الشرع، مرتبطة بأحكامه، وحينئذٍ تتكامل جوانب الإيمان في وجدانه، كما قال النبي -ﷺ- في الحديث الذي معنا: (لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعَاً لِمَا جِئْتُ بِهِ).

ولهذا الحديث مدلوله في بيان ضرورة التزام منهج الله تعالى ، والإذعان لأحكامه وشرائعه ، فإن المؤمن إذا رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد -ﷺ- نبيا ، حمله ذلك على أن يحكّم شرع الله في حياته ، فيحل حلاله، ويحرم حرامه، ويحب ما دعا إليه ، ويبغض ما نهى عنه ، ولا يجد

في ذلك ضيقا أو تبرما، بل إننا نقول: لا يعد إيمان العبد صادقا حتى يكون على مثل هذه الحالة من الانقياد ظاهرا وباطنا، والتسليم التام لحكم الله ورسوله ، كما دلّ عليه قوله تعالى : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [النساء : 56] .

وهذا يقتضي من العبد أن يحب الله ورسوله فوق كل شيء، ويقدّم أمرهما على كل أمر، كما قال تعالى: (قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) [التوبة: 24].

ولسنا نريد بهذه المحبة مجرد كلمات تقال، أو شعارات ترفع، لا تثمر عملا ولا انقيادا، فإن لكل محبة دليلا، ودليل صدق المحبة موافقة المحبوب في مراده، وعدم إتيان ما يكرهه أو يبغضه، وإلا فهي دعاوى لا حقيقة لها، وقد قال العلماء: " كل من ادّعى محبة الله ولم يوافق الله في أمره فدعواه باطلة ".

وإنك لتقرأ في سير الصحابة الكرام ومن بعدهم، فتعتريك الدهشة حين تجد منهم الامتثال الفوري للدين ، دون تأخير أو إبطاء ، واستمع إلى أنس رضي الله عنه وهو يصف لنا مشهدا من غزوة خيبر فيقول : " أصبنا حُمُرًا فطبخناها ، فنادى منادي النبي –ﷺ– يقول : إنَّ اللَّهَ ورسوله يَنْهَيَانِكُمْ عن لُحُومِ الحُمُرِ الأهْلِيَّةِ، فإنَّهَا رِجْسٌ فَأُكْفِئَتِ القُدُورُ، وإنَّهَا لَتَفُورُ باللَّحْمِ"، وهذا يدل على إسراعُ الصَّحابةِ رَضيَ اللهُ عنهم إلى تلبيةِ أوامرِ اللهِ تعالَى ورسولِه –ﷺ– دونَ انتظارٍ أو تلكُّؤٍ، وهو ما يَنبغِي للمؤمنِ الحقّ.

وقريبٌ من ذلك ما ذكر في يوم تحريم الخمر، إذ امتلأت طرق المدينة بالخمور المراقة على الأرض، هذا مع شدة حبهم لها، وتعلقهم بها منذ الجاهلية، ولكنهم – رضي الله عنهم – قدموا رضا الله فوق كل شيء، ولم يتقاعسوا عن طاعته طرفة عين.

وكفى بهذا الانقياد ثمرة أن يجد المرء في قلبه حلاوة الإيمان ولذته، فقد روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي –ﷺ– قال: (ثَلَاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَدَ حَلَاوَةَ الإيمَانِ: – وذكر منها – أنْ يَكونَ اللَّهُ ورَسولُهُ أحَبَّ إلَيْهِ ممَّا سِوَاهُمَا) صحيح البخاري.

وإذا عدنا إلى قوله –ﷺ–: (حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعَاً لِمَا جِئْتُ بِهِ) لعلمنا أن الغاية المطلوبة هي إخضاع رغبات النفس ومرادها لأوامر الشرع، وليس المراد أن يحصل التوافق التام بين رغباتها

وبين مراد الشارع، فإن ذلك في الحقيقة أمر عسير، إذ النفس مفطورة على اتباع الهوى والأمر بالسوء، فجاء الحديث ليبيّن أن اكتمال الإيمان مرهون بالانقياد للشرع، ولم يعلّق كمال الإيمان على تغيير طبيعة النفس، المجبولة على حب المعاصي والشهوات إلا من رحم الله.

ومن هنا ندرك أن مخالفة الهوى تتطلّب همّة عالية، وعزيمة صادقة، فلا عجب أن يكون جهاد النفس من أفضل الجهاد عند الله، كما قال النبي -ﷺ-: (أفضلُ الجهاد أن يُجاهِدَ الرَّجل نفسَه وهواه) رواه ابن النجار وصحّحه الألباني.

إن اتباع الهوى الذي حذرنا منه المولى -عز وجل-، وحذرنا منه نبينا محمد -ﷺ-، وبيَّن خطَرَه علماء الأمة، هو الذي يغير الأمور فيجعل المعروف منكراً والمنكر معروفاً، ويصبح المتبع لهواه، لا يميز بين خير أو شر، ولا بين حسن أو قبيح، إلا ما أشرب من هواه.

يقول النبي -ﷺ- في الحديث الذي رواه مسلم: " تُعْرَضُ الفِتَنُ علَى القُلُوبِ كالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْداءُ، وأَيُّ قَلْبٍ أنْكَرَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بَيْضاءُ، حتَّى تَصِيرَ علَى قَلْبَيْنِ، علَى أبْيَضَ مِثْلِ الصَّفا فلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرْضُ، والآخَرُ أسْوَدُ مُرْبادًّا كالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إلَّا ما أُشْرِبَ مِن هَواهُ. ".

لقد أصبح العبد هواه هو الذي يسيره ويقوده، فأصبح هوى النفس هو الذي يقود الإنسان الذي اتبع هواه؛ فاتباع الهوى أن تكون النفس هي القائدة للإنسان، تحسّن له القبيح، وتقبح له الحسن، وتقوده إلى المهالك؛ فيطيعها في كل صغيرة وكبيرة دون أن يبحث عن دين أو عن شرع أو عن خلق أو عن قيم أو عن مبادئ، وإنما يتبع هواه: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) [الجاثية:23]؛ أصبح الهوى عند ذاك الإنسان الذي قادته نفسه الأمارة بالسوء، وقاده الهوى والشيطان، أصبح الهوى إلهاً يعبده، يحلل له ويحرم له، فيتبعه عند كل صغيرة وكبيرة.

إن الهوى من أخطر الأمور التي يصاب بها الإنسان، ولنعلم أن الفرق بين الإنسان وبين الحيوان هو هذا العقل الذي ميز الله به الإنسان فجعله يميز بين الحسن والقبيح وبين الضار والنافع، وبين ما ينفعه في دينه ودنياه وبين ما يضره، بَيْدَ أن الحيوان لا يعلم شيئاً من ذلك؛ لأنه لا عقل له، لكن النتيجة مختلفة، فالحيوان يكون تراباً يوم القيامة؛ لأنه غير مكلف، بينما الإنسان إما أن يكون إلى جنة وإما إلى نار بحسب حاله الذي كان عليه في الحياة الدنيا!. يقول المولى -عز وجل- في كتابه الكريم: (فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) [النازعات:37-41].

وينبغي أن نعلم أن الفرق بين منهج الله -سبحانه وتعالى- وبين مناهج البشر أن مناهج البشر تتبع الهوى وتسير وفق الأهواء ووفق الرغبات والشهوات، بينما منهج الله -سبحانه وتعالى- لا خطأ فيه ولا ميل؛ لأنه منزل من قِبَلِ رب الأرض والسماوات، (وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ) [المائدة:49].

إن من يتحاكم إلى غير شرع الله قد اتبع الهوى، والهوى يختلف بحسب اختلاف الرغبات والشهوات ومحال أن يتفق الناس أصحاب الأهواء على منهج واحد؛ لأن الأهواء تختلف، ولأن الرغبات تختلف بينما حكم الله واحد لا يتغير.

لما سرقت المخزومية في عهد النبي -ﷺ- وأراد النبي -ﷺ- أن يقطع يدها حز هذا الأمر في نفوس أصحاب الهوى من كفار قريش الذين يتحاكمون إلى العادات وإلى المبادئ الأرضية، فأرسلوا أسامة بن زيد إلى النبي -ﷺ- ليشفع لتلك المرأة فلا تقطع يدها؛ فغضب النبي -ﷺ- غضبا شديدا وقال: "يا أسامة، أتشفع في حد من حدود الله؟ فإنَّما أهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ: أنَّهُمْ كانُوا إذا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإذا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أقامُوا عليه الحَدَّ، والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، لو أنَّ فاطِمَةَ بنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ، لَقَطَعْتُ يَدَها" صحيح البخاري.

إنه منهج الله الذي لا يعرف المحاباة، ولا يعرف المداهنة، ولا يعرف الفرق بين الكبير والصغير، ولا بين الرئيس والمرؤوس، ولا بين الغني والفقير؛ فالناس أمام شرع الله سواسية كأسنان المشط، هكذا هو منهج الله منهج ثابت دائم لا يتغير ولا يتبدل ولا يزول ولا يحول، هكذا هو المنهج الشرعي الذي أنعم الله به على هذه الأمة.

وينبغي أن نعلم أن العبد في هذه الحياة بين إجابتين لا ثالث لهما: إما أن يستجيب لشرع الله، وإما أن يستجيب لهواه، لا ثالث للأمرين! إن لم يستجب لشرع الله فهو مستجيب لهواه لا محالة، يقول الله -سبحانه وتعالى-: (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ) [المائدة:50]، إذا لم يستجيبوا لك يا محمد فإنما يتبعون أهواءهم ورغباتهم، هذا هو المنهج الواضح أن الإنسان إذا لم يستجب لشرع الله -سبحانه وتعالى- فإنه مُتَّبِعٌ لهواه، رضي بذلك أم لم يرض.

لماذا جاءت الشريعة واضحة في هذا الأمر، وجاءت النصوص الشرعية متواترة في التحذير من الهوى، وفي بيان عاقبته، وفي بيان أنه من أعظم الأمور التي ينهى عنها؟ إن الهوى من أعظم الآفات، ومن أعظم المصائب، ومن أعظم السيئات التي يبتلى بها العباد في هذه الحياة الدنيا؛ لأن مَن يتَّبع هواه قد جعل هواه إلهاً يعبد من دون الله، (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)؛ لأنه جعل هواه مشرعاً يشرع له ما يريد، ويقبح له ما يريد.

لما دخل عدي بن حاتم رضي الله عنه على النبي -ﷺ- وسمعه يتلو قول الله تعالى: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) [التوبة:31]، قال: يا رسول الله، لم نعبدهم! قال: "أليسوا يحلون لكم الحرام ويحرمون لكم الحلال فتطيعوهم؟" قال: بلى! يا رسول الله، قال: "فتلك عبادتهم".

إن مَن اتخذ إلهه هواه قد عبد هذا الهوى، ومن جعل نفسه هي التي تحلل أو تحرم فقد جعل نفسه إلهاً من دون الله، مَن اتخذ العادة منهجاً يرجع إليه في التحليل والتحريم فقد اتخذ العادة إلهاً تعبد من دون الله، من اتخذ التقاليد الأرضية أو البشرية أو القبلية منهجاً يتحاكم إليها دون شرع الله فقد اتخذها إلهاً من دون الله تُعبد، هذا منهج واضح لا غبش فيه ولا غموض، قد بينه المولى -عز وجل- بقوله: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ).

في اتباع الهوى استهانةٌ بالذنوب والمعاصي، فتُصبحُ المعصية عند الإنسان لا شيءَ؛ لأنه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أُشْرِبَ مِن هواه، يقول عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: "إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يوشك أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذبابٍ وقع على أنفِهِ فقال به هكذا فطار".

يستهين بالمعصية، لا يرى لها شدة المؤمن الذي يخشى الله -سبحانه وتعالى- ويخاف من عقوبته ويفكر فيما أعده الله تعالى للعصاة.

قال بعض الصالحين: إذا همت نفسك بالمعصية فذكرها بمراقبة الله -سبحانه وتعالى-، وأن الله يراك، ومطّلِع عليك، فإن لم ترتدع عن المعصية فذكرها بالفضيحة، فإن لم ترتدع فذكرها بأخلاق الرجال، فإن ترتدع فاعلم أنك قد انقلبت في تلك الساعة إلى حمار! إذا لم يردع الإنسانَ خوفُ الله ومراقبته، ولم تردعه الفضيحة، ولم تردعه أخلاق الرجال، فما الفرق بينه وبين البهيمة؟ ما الفرق بينه وبين العجماوات؟

هكذا يحذرنا المولى -عز وجل- من هذه المصيبة، من هذه الآفة التي ابتلي بها كثير من الناس، حذرنا المولى -عز وجل- من اتباع الهوى؛ لأن اتباع الهوى يقود صاحبه إلى النار -والعياذ بالله تعالى-، يقول النبي -ﷺ-: "حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات"؛ فكل الشهوات التي تشتهيها النفس الأمَّارة بالسوء هي قائدة إلى النار -والعياذ بالله-؛ وأما الجنة فهي محفوفة بما تكره النفس؛ فإن المسلم يجاهد نفسه في هذه الحياة الدنيا وينهاها عن الهوى، (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى).

إن اتباع الهوى له صور كثيرة، وله مجالات عدة ينبغي أن يتنبه لها المسلم حتى لا يقع في اتباع الهوى من حيث لا يشعر؛ فيكون ممن سخط الله عليه -والعياذ بالله-.

من ذلك أن يلهث وراء لذة عاجلة من الحرام دون أن يبحث عن الحكم الشرعي في ذلك، أن يبحث عن اللذة العاجلة من الحرام من شهوة مال أو فرج أو منصب أو دنيا أو نحو ذلك دون أن يبحث عن الحكم الشرعي، وإنما همه أن يشبع رغبته، أن يشبع هوى نفسه، أن يشبع شهوته، سواء كان ذلك حلالاً أو حراماً، يقول النبي -ﷺ-: " تَعِسَ عبدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وإنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ" صحيح البخاري ؛ فسمى النبي -ﷺ-من يسعى وراء الدرهم والدينار بدون أن يسأل عن الحكم الشرعي في هذه المسألة بأنه عابد له، "تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم".

ومن صور اتباع الهوى أن يكون الإنسان المتبع لهواه فاقداً للغيرة فلا غيرة عنده أبداً، يرى الحرام فلا يتحرك، يرى المنكرات فلا يتمعر وجهه، الغيرة من صفات الإيمان، " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ" متفق عليه، كان النبي -ﷺ- لا يغضب لنفسه أبداً؛ فإذا انتهكت حرمات الله غضب لله، غضب لحرمات الله أن تنتهك.

قال -ﷺ-: "لا يدخل الجنة ديُّوثٌ"" والديُّوثُ الذي يُقِرُّ في أهلِهِ الخبَثَ" الذي لا يبالي مَن دخل على أهله، ولا ما فعل أهله.... فالرجل المتبع لهواه لا غيرة عنده.

ثبت في الحديث الصحيح أن شاباً دخل على النبي -ﷺ- فقال: يا رسول الله ائذن، لي في الزنا. فأوشك الصحابة أن يقعوا فيه، وأن ينالوا منه، فقال النبي -ﷺ-: "دعوه"، ثم قال: "ادنُ أيها الشاب"، فأدناه إليه -بأبي هو وأمي، -ﷺ- فقال: "أيها الشاب، هل ترضى الزنا لأمك؟"، قال: لا، جعلني الله فداك! قال: "فكذلك الناس لا يرضونه لأمهاتهم". قال: "أترضاه لأختك؟" قال: لا، جعلني الله فداك. قال: "فكذلك الناس لا يرضونه لأخواتهم"، ومازال النبي -ﷺ- يسأله: أترضاه لعمتك؟ أترضاه لخالتك؟ وهو يقول: لا يا رسول الله. عند هذا وضع النبي -ﷺ- يده على صدره وقال: "اللهم اغفر ذنبه، وحصّن فرجه، وطهر قلبه"، قال: فوالله! لقد خرجت وما من شيء أبغض إليَّ في الدنيا من الزنا.

لقد فهم من هذا الحديث أن أصحاب الهوى يرضون الزنا لأمهاتهم ولأخواتهم ولخالاتهم ولعماتهم؛ بينما المؤمن الذي لا يتبع هواه يغار ولا يرضى الهوى، ولا يرضى الخنا، ولا يرضى الزنا، ولا يرضى الجرائم لأهله وأقاربه، لا يرضاه للمسلمين كلهم.

من صور اتباع الهوى أن صاحب الهوى عنده استعداد أن يبيع دينه من أجل لذة عاجلة من متاع الدنيا، فهو لا يجد غضاضة في أن يسرق أو يزني أو أن يشهد الزور أو أن يفعل الحرام من أجل لذة عابرة، من أجل أن يشبع هوى نفسه والعياذ بالله.

ذكر ابن الجوزي في كتاب ذم الهوى أن مؤذناً في بغداد –وأنصتوا يا رعاكم الله لهذه القصة المؤثرة التي تبين عاقبة اتباع الهوى أعاذنا الله وإياكم منه– أن مؤذناً في بغداد كان يسمى صالحاً المؤذن، يؤذن أكثر من أربعين سنة، فصعد ذات ليلة على مئذنة المسجد، فنظر في بيتٍ مجاورٍ فرأى امرأة فهويها، فلم يكمل الأذان –والعياذ بالله! –فنزل إلى ذلك الدار، وطرق بابه، فخرجت تلك الفتاة، فقال: أريد أن أتزوجك. قالت: لا يحل لك ذلك. قال: ولماذا؟ قالت: لأنك مسلمٌ وأنا نصرانية. قال: أدع ديني وأدخل في النصرانية. وترك دينه، قالت: إنك إذا وصلت إلى رغبتك تركتني، ولكن لا بد أن أتوثق منك. قال: بم؟ قالت هذا لحم الخنزير، فكُلْ منه، وهذا الخمر فاشربه. فأكل لحم الخنزير، وشرب الخمر. قالت له: إن أبي غائب، فاصعد إلى سطح الدار حتى يأتي أبي فيكمل الأمر، فصعد، وبينما هو صاعد على السلم أخذت به نشوة الخمر فترنح، فسقط، فمات والعياذ بالله! مات نصرانياً بعد أن كان يؤذن أكثر من أربعين سنة، فلما بلغ شأنه للمسلمين ألقوه في زبالة هناك فأكلته الحيوانات والكلاب والعياذ بالله من سوء الخاتمة.

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)، عندما يجعل الإنسان هواه قائداً لا يدري قد يفاجئه ملَكُ الموت وهو في تلك اللذة العابرة، وهو في تلك الشهوة –والعياذ بالله! –فليتصور كل إنسان أن ملك الموت ربما ينزل به في أي لحظةٍ فلا تدعوه نفسه الأمَّارة بالسوء لشهوةٍ عابرةٍ –والعياذ بالله! – وينسى جنة عرضها السماوات والأرض.

من صور اتباع الهوى أن يحرص العبد على الدنيا، وعلى المال، وعلى الربح، بدون أن يبحث عن الحكم الشرعي في ذلك، قال النبي –ﷺ– " إنَّهُ لا يربو لحمٌ نبتَ من سحتٍ إلَّا كانتِ النَّارُ أولى بِهِ " صحيح الترمذي

إن من يبحث عن الربح بدون أن يبحث عن الحكم الشرعي فهو متبع لهواه؛ لذا، ينبغي أن ننتبه لهذه القضية حتى لا نكون عُبَّادَاً للهوى من حيثُ لا نشعر، كم هي المشاريع الربحية التي تخرج بين الناس في كل يوم، ومنها ما هو مخالف لشرع الله، سواء في البيع والشراء، أو في صور من صور الاستثمار الجديدة التي بدأت تغزو أسواقنا، وبدأت تغزو منتدياتنا.

من منا قبل أن يساهم في مؤسسة ما أو في اكتتاب معين أو في بيع سلعة معينة سأل أهل العلم: هل يجوز لي ذلك؟ هل بيع هذه السلعة موافق لشرع الله أم لا؟ هل المساهمة في هذه

المؤسسة أو في هذه الشركة موافق لشرع الله أم لا؟ أم كان همّ الإنسان الدرهم والدينار، همه الريال، همه الربح، فيكون عبداً للدرهم، وعبداً للدينار، والعياذ بالله تعالى، هذه من صور الحرام، من صور اتباع الهوى والعياذ بالله!

ومن صور اتباع الهوى سقوط العالِم وطالب العلم عندما يبيع دينه بسبب منصب أو وظيفة، أو بسبب اتباع شيء من متاع الدنيا الزائل، والعياذ بالله! (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) [الأعراف:175-176].

كم من الناس عندهم علم ولكنهم يتبعون أهواءهم من أجل دنيا زائلة والعياذ بالله! مر أبو حنيفة -رحمه الله- ذات يوم بغلام يلعب في الطين، فقال له: يا بني، انتبه، لا تسقط في الطين. فأجرى الله الحق على لسان هذا الفتى الصغير فقال له: بل أنت يا إمام انتبه لا تسقط، فإن سقوط العالِم سقوط للعالَم، هكذا يجري الله الحق على لسان فتى صغير، يقول له: بل أنت أيها العالم انتبه، لا تسقط، فإن سقوطك سقوط للأمة كلها! سقوط للعالَم، فكان الإمام أبو حنيفة -رحمه الله تعالى- بعد ذلك لا يفتي في أي مسألة حتى يستشير أصحابه ويستشير أهل العلم خشية أن يقع فيما يسخط الله -سبحانه وتعالى-.

ومن صور اتباع الهوى الجور في الحكم، أن يحكم الإنسان بغير شرع الله تعالى، يقول الله تعالى: (فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا) [النساء:135]، فمن يحكم بغير شرع الله فقد اتبع الهوى، واتبع النفس الأمارة بالسوء، واتبع المصلحة والعياذ بالله تعالى. مَن يجُرْ في الحكم وهو يعلم أنه مخالف لحكم الله فهو متبع لهواه، رضي بذلك أم لم يرض.

لقد ظهر لنا خطر اتباع الهوى، وأن الهوى إله يعبد من دون الله تعالى، وأن مَن وقع في عبادة الهوى فهو على شفا جرف هار، عليه أن يراجع نفسه، وأن يعود إلى ربه -عز وجل-، وأن لا يكون ممن أضلهم الشيطان من حيث لا يشعر.

إن ثمة أمور ذكرها العلماء -رحمهم الله- تعالى تحول بين الإنسان وبين اتباع الهوى، فمن ذلك أن يتأمل الإنسان في العاقبة، في عاقبة هذه الحياة، وفي نهايتها، ويتأمل في الآخرة وما أعد الله فيها للمحسنين، وما أعد فيها للعصاة -والعياذ بالله!-.

وأن هذه الدنيا لا تساوي شيئاً أمام الآخرة التي فيها كل شيء، وأمام الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فمهما ملك الإنسان من أموال، ومهما ملك من متاع، فإنه شيء يسير في جنب ما أعده الله تعالى للمؤمنين.

قال النبي -ﷺ-: "يُؤْتَى بأَنْعَمِ أهْلِ الدُّنْيا -ممن تبع هواه- مِن أهْلِ النَّارِ يَومَ القِيامَةِ، فيُصْبَغُ في النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقالُ: يا ابْنَ آدَمَ، هلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هلْ مَرَّ بكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فيَقولُ: لا واللَّهِ يا رَبِّ" صحيح مسلم.

هذا أنعم أهل الدنيا، لما غمس في النار غمسة واحدة نسي ذلك النعيم، الجنة والنار ينبغي أن يتفكر فيها المسلم فيثنيه ذلك عن اتباع الهوى.

من ذلك أن يتأمل في فضيلة الصبر، وأن الجنة حفَّتْ بالمكاره، وأن النار حُفَّتْ بالشهوات، وأن الصبر هو عاقبة المتعففين، فماذا كان يوسف -عليه السلام- ماذا كان سيكون لو أنه اتبع هواه؟ لكن لما خالف هواه واتبع منهج الله تعالى كان إماماً للمتعففين، كان إماماً للصابرين، كان إماماً للمتبعين لمنهج الله تعالى (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) [يوسف:33]، هكذا ينبغي أن يفكر الإنسان في الآخرة.

من ذلك أن يتأمل المسلم أن الهوى لا يدخل في شيء إلا أفسده، فلا يدخل في عبادة إلا أفسدها وأبطلها وأخرج الإخلاص منها، وأدخل الرياء فيها، ولا يدخل في مال إلا أدخل فيه الحرام، ولا يدخل في علم إلا أدخل فيه الجهل، ولا يدخل في شيء إلا أفسده كما قال الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى-، فصاحب الهوى لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه.

وأخيراً، ينبغي أن نفهم أنه لا يستقيم إيمان العبد حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به -ﷺ- كما جاء في الحديث: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به"، فهوى المؤمن متبع لهوى النبي -ﷺ-، ولما جاء به النبي -ﷺ-، نسأل الله العظيم الكريم التوفيق والهداية لكل ما يحب ويرضى.

المراجع:

❶ شرح حديث: لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به: عبد العال سعد الشليّه.

❷ حتى يكون هواه تبعا لما جئت به: اسم الكاتب: إسلام ويب.

❸آفات الهوى: عبد الرحمن بن أحمد علوش مدخلي.